الفصل الثالث

الراعية الوحيدة

في صباح اليوم التالي انطلقنا ـ أنا وفارس ـ على ظهور الخيل لأن رئيس المضارب أعارنا فرسين. وتكسّرت أغصان **الخزامى والبابونج** الدقيقة تحت حوافر الخيل بصوت يشبه حفيف الحرير. وامتدت السهوب حولنا فوق التلال والسهول الفسيحة التي زارتها الأمطار، ولكن ما من أثر للإنسان هناك، فلا هجرات بدوية ولا رعاة يسوقون قطعانهم. فكل ما يمكن تلمسه هو روعة الصحراء البكر.

أطلت شمس الغروب علينا من بين السحب الرعدية. وتراقص الشرق المعتم بالبرق **الخلَّبيّ** وقصف الرعد من بعيد وتراكضت بعض السحب الرمادية أمام رياح المساء مع حلول الظلام.

وعندما شددنا الأعنة فوق قمة إحدى الهضاب أتانا من الأعلى صوت يشبه ضربات الأجنحة العملاقة. إنها الرياح الدافئة تدفع أمامها زخّة ربيعية. ونصبت فرسي «**سادها**» أذنيها بفضول وتراقصت بقلق، وضربت الأرض بحوافرها وحنت رأسها وصهلت برقّة. وبعد ذلك هزت عرفها وضربت بذيلها على جانبيها

الضامرين ورفعت عنقها نحو الأعلى. لقد اكتشفت حواسها الحادة ـ كحواس كلاب الصيد ـ شيئاً.

وهرولت نحو الأمام بقوائم خفيفة وأذنين منتصبتين وخياشم متّسعة واتجهت نحو نار صغيرة ظهرت لنا فجأة بين الظلال المتشابكة للسماء والأرض. ثم أخفتها زخة جديدة من المطر ثانية. وبعد انقطاعها رأينا أيضاً قطيعاً محتشداً من الغنم بللته الأمطار. واعترض كلبان ضخمان اقترابنا بنباحهما الغاضب. وأتانا صوت امرأة من قرب النار يقول: «من هناك»؟ وباستعمال يدي المبلّلتين كبوق للكلام صرخت بعكس الريح بأعلى صوتي «أصدقاء».

ـ ومن معكم؟

ـ الله وحده ـ

ـ عليكم رحمة الله وبركاته ـ

خرجت صبية بدوية من خيمة صغيرة طالبة من كلبيها الابتعاد عندما ترجلنا. وأخذت فرسينا ووضعت أمامهما وعاء من الحليب، وسمحت لنا بالاقتراب من النار التي فرقعت بشدة لأن كل قطرات المطر الثقيلة سقطت فوقها، فامتلأ هواء الخيمة بدخانها اللاذع. وبدت الخيمة بجانب النار مأوى صغيراً لايكاد يستحق اسم خيمة، إذ كانت قطعة واحدة من قماش شعر الماعز الخشن كأنها مجرد ستارة مطر لوقاية الراعية وكلبيها. وفي داخل الخيمة التجأ حمل صغير وأمه التي كسرت ساقها. فجبرت الساق وثبّتها ببعض الأغصان وبضماد من القماش. بينما كانت الفتاة تراقب معالجتي بعينيين متلهفتين.

كانت الفتاة في السادسة عشرة من عمرها: جميلة للغاية رشيقة مثل كل النساء البدويات، وقد اصطبغت وجنتاها اللتان لفحتهما الشمس بالدم. وكان شعرها الكثيف الناعم وأنفها الشامخ ـ يشيران إلى أن الفتاة من نسل إسماعيل النقي.

وحسب عادة الصحراء القديمة وضعت أمامها وعاء من حليب الغنم الطازج ثم استدارت نحوي أولاً وقالت: «أقسم لأختك أنه لن ينالها أي سوء».

وحدقت في وجهي بعينين واسعتين واثقتين، ولمعت أسنانها البيضاء، وتراقصت الغمازات الصغيرة في خدّيها. وأخذت غصناً جافاً من كومة الحطب بجانب النار وقدمته لي قائلة: «خذ هذا بيدك واحلف بالله الذي يحيي كل شيء».

وبسرعة نفذت طلبها وتعهدت بحرمة ضيافتها بقسم لا يخرقه حتى الأطفال في الصحراء وهو صيغة أبناء إسماعيل القديمة: «بسم الله. كما أخذ الروح من هذه القطعة الخشبية الميتة فليأخذ الله روحي مني إذا لم أحافظ على روحك وجسدك وأحميهما يا أختاه». وبعد أن أقسم فارس أيضاً تشجعت وطلبت أن نتصرف بحريتنا في خيمتها، ووضعت أمامنا كل ما تملكه من طعام: الخبز والحليب الطازج وبعض الزبدة والتمر المجفف، وبينما كنا نتناول عشاءنا سحبت إلى الخيمة حملاً صغيراً يثغو بأسى ويحاول التحرر منها، وعندما انحنيت لأمسك بالحيوان استلت الفتاة خنجري من نطاقي وصاحت: «اذبح لي هذه الضحية لكي أطبخها لكما». وأخذت الخنجر المعقوف من يدها ثم تركت الحمل يعود إلى القطيع ولكن الفتاة نظرت إلى لائمة فقلت لها: «لقد قدمت للغريب كل ما يسد الرمق. يشهد الله أننا لا نستطيع أكل حمل كامل. كما أنني لا أرى أي وعاء يمكن أن تطبخي فيه اللحم. فأجابت الفتاة: «ولكنني أستطيع شوي الكليتين والخصيتين على هذا السفود»[1].

لحسن الحظ خافت الفتاة من ذبح الحيوان بنفسها مما سهل علينا إقناعها بأنه لا لزوم للضحية. ولكنها كانت تخشى أن يلومها والدها لأنها لم تقم بواجب الضيافة البدوية الكاملة. وبدون كلام جلست أمام الخيمة وأضرمت لنفسها ناراً صغيرة أضاءت جسدها عندما انحنت فوقها. وتراقص الضوء على وجهها الجميل البراق بقطرات المطر فأظهرت صورة رائعة للجمال الطبيعي والصحة.

وعندما اتضح لنا أن الراعية الشابة عزمت على قضاء الليل في العراء والمطر دون وقاية ألححت عليها ألا تخاف وأن تقاسمنا الخيمة، بل هددت بأننا سنرحل

(١) السفود: سيخ الشوي الحديدي.

إذا لم تفعل. ولكنها لم تأخذ تهديدي على محمل الجد: ضحكت وأجابت بخفة بأنها تستطيع الذهاب إلى خيمة والدها والعودة في الصباح.

وهنا قاطع فارس قائلاً: «من هو والدك».

- إنني **تويما بنت شاعل بن سرحان**، وخيامنا منصوبة مع عشيرة الفريج» فأجاب فارس مداعباً: «إن المسافة بعيدة إلى خيمة والدك والوقت ليل فثقي بنا وتمددي هنا عند أقدامنا».

فقالت الفتاة أخيراً: «في الحقيقة لست خائفة. ابقيا عندي ولا ترحلا». ونهضت أثناء حديثها ورمت بعض الأغصان على النار وانتظرت حتى تشب النار. ثم انتصبت بقامتها الجميلة المديدة ورمت عباءتها عن كتفيها ودخلت الخيمة. وقفت أمامنا وهي تنزع «شالها» وامتدت ذراعاها النحيلان ومعصماها الدقيقان فوق رأسها وبدا عليها الاطمئنان بينما كانت عيناها السوداوان ترمقاننا باستحياء.

تمددت في حماية الخيمة وخلفي النعجة العرجاء وحملها اللذان وجدا مكاناً دافئاً عند كتفي وفروتي. ونهض فارس عندما دخلت الفتاة وساعدها على نشر عبائتها المبللة فوق عمود الخيمة. وبعد أن هيأت لنفسها «مفرشاً» واستقلت نشر فارس عباءته عليها. واحتجت الفتاة لكن فارس أشار إلى فروته وجلود الغنم التي معه مما جعل الفتاة تطيعه وهي ترمقه بنظرة محببة. وكنت أنا وفارس مصممين على ألا نخون ثقة تويما فينا سواء بالقول أم بالعمل.

صحت السماء ونشر القمر الهادىء نوره في الصحراء وألقى أضواءه على منحدرات التلال البعيدة بينما أخذت الريح الدافئة تجفف السهوب والأعشاب والأزهار والأغنام المرتعشة وقماش خيمتنا.

كان فارس وتويما يغطان في نوم عميق كما أدركت من تنفسهما الرتيب أما أنا فكنت مستغرقاً بين النوم واليقظة.

وفجأة بدأ الكلبان ينبحان بحدة. وفي لمح البصر استيقظ فارس وسحب مسدسه من قرابة واندفع خارج الخيمة. ولكن حتى قبل أن يتجاوزه ظل الخيمة

لحقت به تويما ورمت بذراعيها حول جسمه وصاحت محذرة: «لا تطلق النار لأنك ستفزع القطيع. إنها مجرد ذئاب صغيرة وسيطاردها الكلبان». ونادت على **سخان وقصاب**[1] وحثتهما على مطاردة الذئاب. أنزل فارس مسدسه فأخذته تويما وأعادته إلى نطاقه ولكنها لم تتركه. وضغطت نفسها باستحياء عليه وذراعاها تطوقان فخذيه وتراقصت ملابسها بخفة بفعل النسيم الجاف الدافىء. ونشرت السهوب عطورها فبدا الجو مشبعاً برائحة تشبه عطر الخزامى. وطلع الفجر يكشف عن أصوات القطيع المحتشدة بعد أن عاد إلى هدوئه ثانية. ومن البعد وصلنا نباح الكلبين الذي أخذ يخفف تدريجياً إذ إن الكلبين مازالا يطاردان الذئاب. وبالقرب منا أخذت فرسانا المربوطتان تقبعان[1] .

وتحرر فارس برقة من ذراعي تويما ثم أخذ بيدها وأدخلها إلى الخيمة حيث جلسا جنباً إلى جنب. وعندما مال نحوها وقبلها من قمة رأسها استلت تويما خنجره من غمده ووضعته في حضنها وقالت: «دع هذا الخنجر يستقر في حضني». وبهذا ذكرته بعذريتها لأن عفاف الفتاة بين البدو الأصلاء كان ومازال أثمن فصل في مجموعه قوانين الشرف. ومن أجل خرق هذا القانون يمكن أن يقتل الأب ابنته والأخ أخته ويقطع لحمها إرباً إرباً.

واخترقت الشمس حجب الصباح قاذفة أصابعها الملتهبة عبر السماء واكتست الأرض المظلمة بالحمرة الوردية. فقال لمحبوبته «صباح» ولكن الصباح أيضاً كلمة شاعرية تعني «العروس البكر» وأمالت تويما خدّها على خدّه.

وهكذا جلسنا بلا حراك ولا كلام. ثم نهضت تويما وسارت نحو قطيعها ولكنها توقفت فجأة وتسمرت في مكانها. واغترفت عينا فارس المفتوحتان من جمال قامتها التي بدت بوضوح تحت ثنايا ثيابها الرقيقة وقد زادتها أشعة شمس الصباح جمالاً على جمالها. وعندما بدأ فارس بالسير نحوها تضاحكت وهربت مسرعة واضعة في نفس الوقت شالها حول كتفيها حتى وصلت إلى الانهدام الذي

---

(١) اسما الكلبين.

(١) القبع: صوت يردّده الفرس من منخره إلى حلقه. إذ رأى ما يزعجه.

يرعى فيه قطيعها ويلعب كلباها يتقلّب أحدهما فوق الآخر على الأعشاب الناعمة.

وانتشرت أشعة الشمس الصافية فوق البرية. وفي هذا الجو البلوري والصافي يمكن للعين أن تمسح الآفاق البعيدة عبر الهضاب السمراء والبطاح الخضراء. وخطرت في السماء الزرقاء بعض السحب البيضاء. وهبت **قنبرة** سعيدة ترتفع أكثر فأكثر في نشوة التغريد. وفوق السهوب مازالت تتهادى الرياح الدافئة الناعمة. هذا هو الصباح الذي استيقظ فيه الحب في قلب فارس. وبعد الإفطار كان علينا أن نتابع مسيرتنا. أعادت تويما إشعال النار في الموقد وخلطت بعض الدقيق بالماء البارد وجعلت العجين في أرغفة صغيرة رقيقة وخبزتها على حجار النار. وأثناء الإفطار أخذت تغمس التمر في الزبدة وتضع هذه اللقمات في فم فارس وفي فمي بالتناوب.

وسألت تويما حبيبها الجديد: «هل ستعود؟».

فأجابها متسائلاً: «هل ستذكرينني».

فأجابته متسائلة بدورها «وأنت؟».

ثم قادته من يده نحو فرسه. وعندما رمى نفسه على ظهر الفرس أخفت وجهها عند ساقه وبدأت بالبكاء فانحنى ورفع رأسها بلطف من الذقن ونظر طويلاً إلى عينيها. ولما تاق وجهها المرتفع نحوه التقت شفاههما للمرة الأولى ولامس جفنها خدّه. وقال لي فارس فيما بعد: «تلمست أسنانها البراقة عندما فارقت شفتاي شفاتاها فوجدتها كطعم الحليب».

وصاحت تويما بعد انطلاقنا: «ابقيا» فصاح فارس: «يشهد الله أن حبّك منذ الآن سيكون رفيق قلبي الدائم». فقالت: «السلام عليك يا فارس».

وكلما التفتنا إلى الوراء وجدنا تويما واقفة بجانب قطيعها بدون حراك وهي تحدّق فينا. وعند التلة الأخيرة نزع فارس كوفيته ولوّح بها إلى صورة الفتاة البعيدة فلوّحت له بشالها بالمقابل.

* * *